مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 9، العدد 34 (ربيع 1998)، ص 97

الشهادة الثانية

جورج حبش[1]

"كان الجنود اليهود يقولون لنا: إمشوا. وكنا نمشي. كان يوماً حاراً، من أيام شهر رمضان... وصلنا إلى آخر البلدة حيث أقيم مركز يهودي كبير لتفتيش المغادرين. لم يكن معنا أي سلاح. ويبدو أن ابن جارنا، واسمه أمين حنحن، كان يخبئ بعض المال، فلم يقبل أن يفتشوه. عندها أطلق جندي صهيوني النار عليه أمامنا فقتله. واندفعت والدته وشقيقته نحوه وقد علا نحيبهما."

غادرت اللد مرتين: أول مرة إلى يافا بعد إنهاء دراستي الابتدائية، وكان عمري وقتها ثلاثة عشر عاماً. كنت حينها إنساناً ذا مشاعر وطنية، مجرد مشاعر وطنية عامة؛ وما زلت أتذكر التظاهرات والإضرابات التي كان ينظمها المواطنون الفلسطينيون.

في يافا التحقت بالمدرسة الأورثوذكسية، وبقيت فيها حتى الصف الثاني الثانوي. وهنا أذكر أستاذاً لبنانياً، اسمه مُنح خوري من الجنوب اللبناني، كان يعلمنا اللغة العربية. لقد ترك انطباعاً قوياً في نفسي، وكانت اللغة العربية بالنسبة إليه عالماً محبباً، وكان يقرا الشعر كأنه يغنّيه. أذكره جيداً، وما زلت أحبه حتى الآن. وقد التقيته بعدها في بيروت عندما ذهبت للالتحاق بالجامعة [الأميركية]، ثم عرفت أنه غادر إلى الولايات المتحدة.

في المدرسة الأورثوذكسية في يافا لم تكن صفوف المرحلة الثانوية كلها متوفرة، فاضطررت إلى الانتقال إلى مدرسة ثانوية في القدس اسمها "ترّاسنتا". بعد

[1] المصدر: مستخلصة من كتاب: "التجربة النضالية الفلسطينية: حوار شامل مع جورج حبش". أجرى الحوار محمود سويد (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1998)، ص 1.7.

إنهاء الدراسة الثانوية في القدس، عدت إلى يافا وقمت بالتدريس عامين، ثم توجهت سنة 1944 إلى بيروت للالتحاق بالجامعة الأميركية. وكنت . في يافا . أتردد على النادي الأورثوذكسي، وأقرأ المجلات التي كانت تأتي من مصر؛ كنت أتابع بصورة عامة الموضوعات الثقافية والأدبية.

[في الجامعة الأميركية] كنت طالباً متفوقاً، أهتم جيداً بدروسي، وفي أوقات الفراغ أمارس هواياتي، وخصوصاً السباحة. كنت أحياناً أغنّي، فقد كان صوتي جميلاً. ولم يكن يخطر ببالي أن السياسة ستشغلني، وستملأ كامل مساحة حياتي.

ظل هذا وضعي حتى بداية العام الدراسي الرابع في الجامعة، أي الثاني في تخصص الطب. وفي أحد الأيام، جاءني صديق من الجامعة اسمه معتوق الأسمر (من نابلس) وقال لي: هناك أستاذ . يقصد الأستاذ قسطنطين زريق . ينظم حلقات ثقافية صغيرة مغلقة، يتحدث فيها إلى عدد محدود من الطلاب (20 . 25 طالباً) عن القومية العربية، وعن الأمة العربية وكيف يجب أن تنهض. وعرض عليّ فكرة حضور تلك الحلقات.

كانت محاضرات للتوعية وإثارة النقاش، ولم يكن هناك أي رابط تنظيمي. وكي أكون دقيقاً، في ذلك الوقت قال لي معتوق: هناك شخص اسمه رامز شحادة (كان قد تخرج من الجامعة) أريد أن نلتقيه ونتحدث في موضوع الوحدة العربية وإنقاذ فلسطين والسبل إلى بلوغهما. لكنني كنت حينها عازماً على العودة إلى اللد، فلم يتم هذا اللقاء.

كان ذلك في نهاية حزيران/يونيو 1948. كانت الهجرة من فلسطين على أشدها، وانتهى العام الدراسي وأُقفلت الجامعة. قلت في نفسي: يجب أن أذهب إلى فلسطين، وإلى اللد بالذات؛ فقد طردت القوات الصهيونية الناس من يافا فجاؤوا إلى اللد. لكن أهلي طلبوا مني البقاء في بيروت، وأرسلوا إليّ مالاً؛ فوالدي كان موسراً، وكانت أمي تخاف عليّ كثيراً جداً.

فاجأ وصولي إلى اللد الأهل، وقالت لي أمي: ماذا تريد أن تفعل يا ولدي؟ وقال لي شقيقي: ماذا تستطيع أن تفعل؟ وفكرت: هل في إمكاني أن أقاتل؟ لقد بدأت دراسة الطب وأستطيع المساعدة في هذا المجال. وكان في مستشفى اللد طبيب من عائلة زحلان، فأخذت في العمل إلى جانبه ومساعدته.

كانت اللد، كغيرها من المدن والقرى الفلسطينية، تعيش حالة من الارتباك الشديد والقلق. كانت الطائرات تُغِير وتروّع الناس، والبلدة تغص بالمهجَّرين من بعض المناطق القريبة التي هاجتمها العصابات الصهيونية قبل أن تهاجم اللد. كان هناك لجنة اسمها اللجنة القومية (فرع اللد) برئاسة الحاج أمين الحسيني، دعت مثل غيرها من الهيئات الوطنية الناس إلى عدم الرحيل، بل حتى كانت تحاول منع الناس من المغادرة. وكان بعض الناس، المطمئنين إلى وجود قوة من الجيش العربي في موقع قريب من البلدة، يعتقد أن هذه القوة ستحول دون سقوط اللد. وما حدث هو أن القوات اليهودية شنت هجومها الكبير ودخلت اللد.

كنت في المستشفى أساعد الدكتور مصطفى زحلان. كان الهلع والخوف يعمّان البلدة، وكان الجرحى من المقاتلين والأهالي يملأون المستشفى؛ كان الوضع رهيباً وقاسياً.

كنت منهمكاً في عملي، عندما جاءت خالة أمي إلى المستشفى تسأل عني. وعندما التقيتها طلبت مني أن أعود إلى البيت لأن أمي خائفة عليّ. رفضت العودة، وأصرّتْ، فأصررت بدوري. عند ذلك قالت لي: أختك توفيت؛ أختي الكبيرة التي أحبها كثيراً. وفي الطريق إلى البيت شاهدت الناس في الطرقات في حالة من الذعر الشديد، وكان القتلى والجرحى الذين أعرف بعضهم ممددين على جوانب الطرق.

قمنا بدفن أختي قرب البيت، إذ تعذّر الخروج إلى المقبرة. ولم يكد يمر أكثر من ثلاث ساعات حتى داهم المقاتلون اليهود المنزل وراحوا يصرخون بنا: برّة، برّة، أخرجوا". خرجت وأمي وأولاد أختي . وبينهم طفلة صغيرة حملناها . وأقارب وجيران. لم نكن نعرف إلى أين نذهب. كان الجنود اليهود يقولون لنا: إمشوا. وكنا نمشي. كان يوماً حاراً، من أيام شهر رمضان. كان بعضُ مَنْ حولنا يقول هذا هو يوم القيامة، وآخرون يقولون: هذه جهنم، وصلنا إلى آخر البلدة حيث أقيم مركز يهودي كبير لتفتيش المغادرين. لم يكن معنا أي سلاح. ويبدو أن ابن جارنا، واسمه أمين حنحن، كان يخبئ بعض المال، فلم يقبل أن يفتشوه. عندها أطلق جندي صهيوني النار عليه أمامنا فقتله. واندفعت والدته وشقيقته نحوه وقد علا نحيبهما. شقيقه الأصغر منه، بشارة، كان صديقي وزميلي في المدرسة الابتدائية، وكنا ندرس ونلعب معاً.

تسألني لماذا اخترت هذا الطريق؟ لماذا صرت قومياً عربياً؟ هذه هي الصهيونية، وبعد ذلك يتحدثون عن السلام؟ هذه هي الصهيونية التي عرفتها ورأيتها. ■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf